(الـتـطرف والـتيـسيـر)

التطرف : لغة مجاوزة الحد.
ويُعرَّف في الاصطلاح بأنه:التشدد ومجاوزة حد الاعتدال بما يخالف سماحة الشريعة وعدالة القانون . ويظهرمن ذلك تقاربٌ بين معنى التطرف اللغوي وبين معناه الاصطلاحي.
ففي العرف يصح أن يقال لمنْ يغالي ويتجاوز في تصرفاته حدَّ الاعتدال المتطرف،وبهذا المعنى حدد الفقهاء المعاصرون: بأن الإنسان المتطرّفَ (هو المتجاوز للحدود الشرعية في أي أمر من الأمور حتى في العبادة نفسها)
فالتطرف صفة مذمومة في الشرع و في القانون، فالتشديد في العمل وأخذ العسر دون اليسر خروج عن الفطرة السليمة،بينما الوسطية والإعتدال محمودتان شرعاً،وقانوناً وعقلاً، فالإعتدال والوسطية عكسا التطرف والغُلُوِ تماماً.
ولقد كثرت أمثلة في مدح الإعتدال والوسطية في الشرائع السماوية وفي التشريعات الوضعية، فمن الشرائع السماوية قوله تعالى:{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً }أي عدولاً وخياراً ، وقوله تعالى:{ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}
ومن البدهي أن التطرف بعيد كل البعد عن الأحكام المذكورة في نص الآيتين الكريمتين، فهذا تأكيدٌ على أن الاسلام يَحثُّ دوماً على الالتزام بالتوسط والاعتدال ويعتبرهما مصدراً للشيم والخلق الكريمة،ولذلك أشاد بها. وقد تخلق بها النبي الأكرم في حياته العملية ونص عليها قائلاً:[بَشِّرُوا وَلاَ تُنَفِّرُوا وَيَسِّرُوا وَلاَ تُعَسِّرُوا] فالحديث يصور مدلولا كاملا بحيث يكاد أن يُحس به ويُرى .
وقال أحد شراح الأحاديث :(... هذا الحديث من جوامع الكلم،لاشتماله على خيريْ الدنيا والآخرة، لأن الدنيا دار الأعمال والآخرة دار الجزاء، فأمرَ رسول الله فيما يتعلق بالدنيا بالتسهيل، وفيما يتعلق بالآخرة بالوعد بالخير والإخبار بالسرور، تحقيقا لكونه رحمة للعالمين في الدارين. وقال: (وفيه الأمر للولاة بالرفق) وكان دوماً يحب التخفيف والتيسر على الناس ويقول:[إن هذا الدين يسرٌ] و[خيرُ الأمور أوساطها]
ومقتضى السنة النبوية:أن كل خصلة محمودة لها طرفان مذمومان، مثل أن السخاء وسط بين البخل والتبذير، والشجاعة وسط بين الجبن والتهور، والإنسان مأمور أن يتجنب كل وصف مذموم.
فالوسطية والتيسير هما شعار الاسلام ووسامه كما هو معلوم وقد أناطهما الله به .
فعليه كل تطرف في الدين سواء صدر من الولاة أو دولة أو جماعة أو حزب قد يكون مصدراً للبدع والأهواء والآراء وإثارة الفتن، وقد أكَّد ذلك قوله تعالى:{ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعُواْ أَهْوَاء قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيراً وَضَلُّواْ عَن سَوَاء السَّبِيلِ}
والغلو هنا هو تجاوز حد الاعتدال في كل أمر سواء أكان مباحاً أو غير مباح، فهو التطرف بعينه ومذموم بنص الآية المتلوة ،ومعلوم أن الأهواء من التطرف وأن سواء السبيل هو الوسطية والتيسير والاعتدال،ولذلك يجب على المجتمع الإنساني أن يدرأ عن نفسه خطر التطرف والمتطرفين ودعواتهم الباطلة، حتى لا يصاب بما أصاب الشعب العراقي المسلم المؤمن المسالم.
ومن الجدير بالإشارة: إلى أن الجد والقوة والصرامة في مواضعها لا تنافي الوسطية والاعتدال.
وبناء على ذلك أن التطرف والتعصب المذهبي والطائفي أمورٌ مخالفة لشريعة الإسلام، وتتعارض مع الواقع الذي عاش فيه المسلمون الأوائل، فالإسلام في القرن الأول الهجري مرَّ بعصره الذهبي، وكان يسود التعاون والتساند والتفاهم بين مختلف المجتمعات الاسلامية بعيداً عن التطرف والغلو، وكان جميع الأطياف الإسلامية ينظرون الى إختلاف الآراء سببا للتوسع الفقهي والتيسر الديني ونشر الرحمة، وكان أبطالها رفاق السلاح، لا خصوما متناحرين، ناصبين أمام أعينهم ما روي عن النبي الكريم [إختلاف أمتي رحمة]

فالحديث يكاد يكون نصاً على حسن التفاهم والتعامل الحسن بين أمة الإسلام ولاسيما بين علمائها.
لذلك أورده بعض أهل الحديث في باب" ماجاء في حسن الخلق" فذكروا: أن المراد من حديث "اختلاف أمتي رحمة" أي بأن جعله الله تعالى رحمة وكرامة للعلماء، فالحديث يوافق ظاهر الآية الكريمة: {وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ } فقد جاء في وسط الآية التي بعدها {وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ}ونبَّه بعض المفسرين بأن المشار إليه في {ذَلِكَ} يرجع إلى الاختلاف، فلولم يكن الاختلاف رحمة لما خلق الله الخلق له.
هذا.
ومن الناحية الاجتماعية أن التطرف قد يؤدي بالإنسان إلى التحجر والجمود الفكري وضيق الأفق المضاد لكل تغيير أو تطور أو تقدم، وهذا من شأنه أن يدفع بالمتطرف إلى الانزواء والانطواء على نفسه وعدم الانفتاح على الرأي الآخر والاصلاح ، فيضر بنفسه وبمجتمعه ووطنه وأمته، وهذا مناف لحديث (خيركم الآلفُ المألوفُ) ومخالف لقاعدة (لا ضرر ولا ضرار) علما بان من مقاصد الإسلام منع الضرر قبل وقوعه،ورفعه بعد وقوعه.
إضافة إلى ذلك قد يثور المتطرفون على مجتمعهم فيثيرون قلاقل ومشاكل وفتنا كبيرة، قد لا تُحمد عقباها، كما هو حال المجتمع الإسلامي اليوم على أيدي أبنائه المتطرفين الذين أساءوا إلى أمتهم و شوَّهوا سمعتها الطيبة.
وأظهر مثال للمتطرفين المعاصرين هم القاعدة و(داعش) وما تسمى بجماعة النصرة ومن لفَّ لفهم مما لايخفون على أحد. ويكاد هذه النماذج ذريعة قوية للأنظمة الاستعمارية وعملائهم للتآمرعلى الإسلام وأهله، كما نشاهد تحالفا دوليا واسعاً ضد الإسلام وأهله المسالمين باسم محاربة الإرهاب والتطرف والدواعش، وكل مصائب هذا التحالف التآمري تنصب على الأمة الإسلامية المؤمنة المسالمة مباشرة.

والتيسير: لغة مأخوذ من اليسر.
و باختصار شديد أن التيسير أصل من أصول الاسلام ، فهو أمر مطلوب و ممدوحٌ عقلا ونقلا. وأوفق تعريف له هو: كل مايكون عكس التطرف وضده هو التيسير شرعا وقانوناً. ومن التيسير عرض سماحة الاسلام ويسره في التعامل، حتى مع الآخر المخالف. وقد بَشِّر بالتيسير قولا وعملا جميعُ الديانات السماوية والنظم المدنية، وظهر ذلك جلياً في عصور الاسلام الاولى من خلال التعايش السلمي والتعاون الوثيق بين اهل الديانات في ايجاد مساحات الحوار المختلفة فيما هو انساني ومشترك، فكما قال الشاعر:-

الدين يسر و الخلافة بيعة *** *** والأمر شورى والحقوق قضاء .

ومما لا شك فيه ان التيسير في الدين من اهم مصاديق الحكمة في الشريعة الغراء ذلك ان التعسير والتشدد والتضييق على الناس من اسباب اعراض الناس ورغبتهم عن الدين . وبالتالي انتشار الغلو والتطرف والارهاب في اوساط الشباب مما يؤول الى خراب البلاد و هلاك العباد.
وما نراه من بقايا لجميع ماهو خير في المجتمع البشري يعود الفضل فيه إلى التيسير والتسهيل، وقد وردت نصوص مبشّرة بالتيسير في الفقه وأصوله، كقولهم: (إذا ضاق الأمر اتسع)وقولهم:المشقة تجلب التيسير) وأحسن مايختم به في ذلك قوله تعالى:{يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ} وقول رسوله الأكرم: (إن هذاالدين يسرٌ، ولن يشادَّ هذا الدين أحدٌ إلاّ غلبه) وفي لفظ: (... فأوغلوا فيه برفق). وكان من شيم الرسول أنه ماخير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثما، فإذا كان إثما كان أبعد الناس منه.

ويستنتج مماتقدم: ان التطرف مصطلح سياسي جديد نسبة ما، يُقصد به عكس الوسطية وضدها، وقد يلتجأ الى التطرف بعض الأطراف التي تشعر بالضيم والظلم عندما تواتيه الفرصة للمقاومة والثورة على المستبدين والجائرين. فجميع الثورات التي تكون ضد البلوك الشرقي مهما كانت مقاصدها وأهدافها شريفة توصف بوصمة التطرف.!
فجميع الثورات للشعوب العربية والشعوب الشرق الأوسطية وصفت في بدايتها بوصمة التطرف والإرهاب، ولكن الحق يقال: إن هذه المجاميع الثائرة في أثناء مسيرتها تصاب بالهيستريا، فيؤول أمرها الى التطرف بأشد أنواعه. وهذا هو الواقعُ لواقع التطرف .
أما من جهة الإسلام فإن التطرف مذمومٌ في كل شيئ، حتى في العبادة، والحكم، والسياسة. الخ ... ويمدح الله أهل الاسلام بأنه أمة وسط. وقد شهد التأريخ للمسلمين على مر العصور انهم يعايشون غيرهم من الاديان والحقائق في ظلال التعايش والتآخي وقبول الآخر أولى الدولة الاسلامية في المدينة زمن النبي'ع' والى يومنا هذا في كل مكان يحكم فيه الاسلام الصحيح .
ففي ظلال الاسلام وفي كنف المسلمين كان يعيش اليهود والنصارى والصابئة والزرادشتية وغيرهم من الملل والنحل، ولكن عندما يدخل الاستعمار الغربي في شؤون البلاد الاسلامية واضطر المسلمون للدفاع عن أنفسهم خرجت المسيرة الاسلامية عن سكتها، وأصابها أنواع الاضطرابات، كالإرهاب والتطرف والتشدد والثورات الدموية.
ان التيسير أمرٌ ممدوح نقلا وعقلا، وقد بشر به جميع الديانات السماوية والنظم المدنية، وما نراه من بقايا لجميع ماه خير في العالم الإنساني يعود الفضل فيه الى نظام التيسير والتسهيل. فالإسلام كمثال من الاديان السماوية يقول على لسان نبيه:
(بشِّرْ، ولا تنفِّرْ، يسِّرْ، ولا تُعسِّرْ)
وكذلك جاء مدح التيسير والتبشير في جميع الكتب السماوية، كالتوراة والإنجيل وصحف إبراهيم،كما اخبر به القرآن الكريم.

د.أنور أبو بكر كريم الجاف
عميد معهد العلوم الاسلامية السليمانية وكالة
رئيس قسم القانون سابقا، بكلية القانون والسياسة/جامعة السليمانية